# ديناميكية البصرة في عيون التاريخ والرحالة ٨٠٠ هـ - ١٣٣٣هـ /١٣٩٨م – ١٩١٤م

**الاستاذ الدكتور**
**عبد الحميد القيسي**
**جامعة بغداد – كلية ابن الهيثم**

**الاستاذ الدكتور**
**ماهر يعقوب موسى**
**الجامعة المستنصرية – كلية التربية**

**الملخص**

توضح هذه الدراسة كيفية انتقال البصرة العمرية من منطقة الزبير باتجاه موضع مدينة البصرة الحالية، وشكلوا في منطقة استقرارهم النواة الأولى للمدينة التي أخذت تتوسع وتنمو باتجاه الشرق نحو شط العرب على طول نهر العشار ليكون نواة ثانية تمثلت بمنطقة العشار، وما لبثت أن ارتبطت النواتان ببعضهما، ولمّا كانت هذه المدينة ذات صفة تجارية ازدهرت فيها الحياة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية مما حدا بأن تستقطب العديد من المستشرقين الأجانب لزيارتها والتمتع بأجوائها حتى وصفها بعضهم بأنها مدينة البندقية لما فيها من أنهار متعددة تفصل بين المناطق المأهولة فيها التي ترتبط ببعضها عن طريق القوارب.

وعلى الرغم من أن مدينة البصرة تمثلت بالوظيفة التجارية ومنافستها لكثير من المدن إلا أن هذه الوظيفة لم تنعكس كما ينبغي على واقع المدينة العمراني، أي أن مداخلاتها لم توظف كما ينبغي لتحقيق مخرجاتها العمرانية وهذا أدى إلى الضعف النسبي في الجانب المادي لهذه الحقبة.

وقد كانت مدينة البصرة تمثل عملية صيرورة عبرها تتفاعل الخصائص المادية والروحية مكانياً وزمانياً في الحيز المحدود الذي عبر عن قوى الجذب

المكاني لشط العرب الذي مدّ ذراعه المتمثلة بنهر العشار مما أدى إلى استدراج مدينة البصرة القديمة (النواة الأولى) إليه (شط العرب) عبر ديناميكية الذراع المائي وحيوية شط العرب الذي ولدّ هيمنة موضعية للالتحام بين النواتين.

ويبدو أن السور الذي ذكرته كتب التاريخ والرحالة الذي أحاط بمدينة البصرة هو في الحقيقة لا يتلاءم مع نشاطها التجاري ولم تلجأ إليه إلا اضطراراً لحمايتها، فالسور فيما يتعلق بمدينة البصرة يشكل حاجزاً نفسياً لايطاق، حتى أن الكثير من الرحالة قد ذكروا بأنه سور متداع لعدم أهميته، لأن مدن الموانئ هي مدن منفتحة على خلاف المدن الحربية التي تحتاج إلى السور والانغلاق وعليه فإن هذا يجعل الخصائص الاجتماعية والثقافية مختلفة بين مدن الموانئ التجارية والمدن الحربية.

## المقدمة :

مرت البصرة في هذه الحقبة التاريخية بمخاضات كثيرة، وإن سكنى المدن لم يكن يمتلك آنذاك مقومات الجذب الحضري، كما هو الحال في الوقت الحاضر، إلاّ بنطاق محدود، إذ لم يزل نداء المدن في المنطقة لم يزل ضعيفاً أزاء الحياة الريفية، وهذا ناجم من ضعف العلاقة بين المدينة وساكنيها، بأنماطها الحياتية تكاد لا تتماشى مع طريقة عيشه، إذن افتقرت المدينة إلى جهود الكثيرين من السكان الذين يمثلون عصب الحياة فيها، وأداة تطورها، وعنصرها المهم في تشكيل الحضارة وبناءها.

لقد اعترضت تاريخ مدينة البصرة الطويل اضطرابات وغزوات وحروب، فضلاً عن الأوبئة الفتاكة كالطاعون والكوليرا (الهيضة) المصاحبة أو التي تخللت تلك التوترات البشرية كما كان للبيئة الطبيعية كالأهوار المحيطة بمدينة البصرة من الشمال، وارتفاع درجة حرارة الجو وثقل الهواء كل هذه المشدات مجتمعة أو متعاقبة في حدوثها حددت في هذه الحقبة من إيقاع التطور المطلوب لمدينة البصرة.

## المتغيرات المشكلة لمدينة البصرة :

مارست المتغيرات السياسية والاقتصادية والإدارية أدواراً مهمة في طبع المدينة بطابعها سواء كان إيجابياً أم سلبياً، وهذه الثنائية رغم تناقضها، إلاّ أنها تحمل في طياتها تكاملاً ينبثق من توليد أفكار وعلاقات تسهم في إبراز الشخصية المعنوية للمدينة المختلفة عن غيرها في المعمار ونظمها المكانية والاجتماعية.

**أولاً- المتغير السياسي** : تؤشر الأحداث التاريخية المتقدمة بأن الأحوال العامة للمنطقة غير مستقرة لاسيما بعد مقتل الخليفة الثالث إذ حدثت معركة الجمل في مدينة البصرة (العمرية)* وزعزعت الأوضاع الأمنية في المدينة، وبعد ذلك تمرد الخوارج وقتلوا أناساً كثيرين، كما أوقع الحجاج بالأهالي –حسب رواية ابن قتيبة-* فنال رقاب الناس الذي بلغ عددهم (٧٠ ألف) نفس(١)، كما تعرضت البصرة (العمرية) إلى ثورة الزنج سنة (٢٥٧هـ- ٨٧١م) الذين قتلوا ما يقرب من (١٠٠٠٠٠نسمة) في جامع المدينة وأُمر بهدمه وإحراقه، كما هدم (١٥٠٠ داراً) و(٢٠٠ جامعاً)(٢).

وقد استمر هذا الشد على المدينة من خلال تراجع بغداد عن أداء دورها الحضاري لما أُحتلت سنة (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م) وما أعقب ذلك من اجتياحات للعراق حتى سنة (٩١٤هـ - ١٥٠٨م) يجمعهم قاسم مشترك واحد هو الأطماع في خيراته والتمتع بامتيازات موقعه، لذا كانت مدن العراق مسرحاً للخراب، حتى يمكن القول أن ما أصاب البصرة (العمرية) من أضرار كان كبيراً كبقية مدن العراق وتقطعت بأهلها أسباب العيش لفقدان الماء وعدم الاستقرار والأمراض والنهب والقتل، فلجأ الفارون وأسسوا إلى الشرق منها على بعد (١٥ كم) نواة مدينة البصرة الحالية سنة (٨٠٠هـ - ٨١٠هـ) بعيداً عن شط العرب (دجلة العوراء) مسافة (٥,٣ كم)، وقد بنوا هؤلاء البيوت والمدارس والمساجد وحكموا المدينة(٣).

وعندما أحتل سليمان القانوني مدينة بغداد سنة (١٥٣٤م) كان حاكم البصرة مغامس بن نافع ليس على وفاق مع الفرس وكذلك مع النفوذ الأوربي، فمال ولاؤه إلى العثمانيين، لكن مصالح العثمانيين تعارضت معه ودخلت البصرة(٤) بعد أن هدها مرض الطاعون، ومنذ سنة (١٧٣٤م) حتى سنة (١٧٧٥م) تعرضت البصرة لهجومات وحصار متكرر صمدت البصرة أمام هذا الضغط الكبير مما عرقل من تطورها وازدهارها.

وفي العهد العثماني الأخير (١٨٣١م – ١٩١٤) استلم خلاله السلطة علي رضا الذي وجه اهتمامه إلى تقويض الكيانات السياسية المحلية ونفوذ بعض العشائر، ومنها المحمرة التي تحولت إليها السفن التجارية بسبب رفع رسوم الكمرك في البصرة وهذا أثر عليها مما دفع علي رضا من فتح المحمرة لإعادة المكانة الاقتصادية للبصرة بعد تدهورها(٥)، ولكن كان ذلك على حساب أموال أهل البصرة لا سيما تجارها مما أنهك سكان المدينة مادياً واقتصادياً، فتأثر نشاطها بعد أن تركها التجار(٦) مما انعكس على وضع المدينة العام.

**ثانياً- المتغير الاقتصادي** : تموضعت النواة الأولى لمدينة البصرة على نقطة من نهر العشار تبعد حوالي (٥,٣ كم) عن شط العرب، سمحت هذه القناة المائية لأن تمارس المدينة نشاطاً تجارياً مستفيدة من تغيير مناسيب شط العرب في أثناء عمليتي المد والجزر، التي خلقت نشاطاً اقتصادياً يعتمد على النقل المائي في إيصال البضائع من المدينة وإليها عبر نهر العشار المرتبط بشط العرب الذي خلق هذا الارتباط الانقطاع الميكانيكي عندها تنقل البضائع من النهر إلى اليابس حيث مدينة البصرة.

لقد تراوح عدد وسائط النقل المائي الداخلة إلى المدينة والخارجة منها بحدود (٢٠٠-٣٠٠) زورقاً وسفينة*، فاستقطب النهر سنة (١٩١٠) سكاناً بلغ

(٢٠٠٠٠ نسمة) للسكن إلى جواره(٧)، لكونه مصدراً لمياه الشرب والغسيل، وعلى وفق هذا المنظور يعد صدر نهر العشار ميناء متقدماً (out port) لمدينة البصرة.

إن عملية الجزر التي تحدث مرتين في اليوم قد حفزت نشاطاً خدمياً يقترن بالنقل البري، فكان مدعاة لفتح شارع محاذ للنهر تنقل عبره البضائع بالعربات من شط العرب وينتهي في سوق السيمر(٨)، مما انعش هذا الجانب صناعة العربات التي مثلت نشاطاً اقتصادياً وخدمياً مضافاً لأهالي المدينة.

يمثل موقع البصرة على المستوى المحلي موقعاً هامشياً، بينما على المستوى الدولي يشكل موقعاً عقدياً، فهو يربط بين الشرق الأسيوي والغرب الأوربي، إن أهمية البصرة التجارية لا تختلف بشأنها الدراسات، فقد وصف "استون شيفرد" أهمية سوق البصرة وسمعته التي تفوق أسواق القاهرة أو الاسكندرية(٩) لسعة علاقاتها المكانية التي ترتبط بها مع دول العالم مثلما موضح في الجدول.

شجعت هذه العلاقات الواسعة المستمدة من موقع وموضع المدينة على تحفيز الإمكانات الذاتية والموضوعية لها، فمن خلال ذلك برزت سمات المدينة التجارية التي يتميز سكانها بمنظور شامل لما يحيطهم من أشياء كوني (Globalization) على مستوى الفعل الإنساني الناتج من مصاهرة الأفكار المتباينة في المكان، ومفضية إلى مجتمع متفاعل ينسجم مع الآخر دون تحفظ ملموس، وبهذا الصدد ذكر "بكنغهام" عندما زار البصرة سنة (١٨١٦) إنه توجد في المدينة خمسون عائلة أرمنية، ومائة عائلة يهودية، وعشرون عائلة مسيحية، وهذا يؤشر وجود التسامح بين الأهالي في مدينة البصرة(١٠).

**جدول يوضح العلاقة المكانية لمدينة البصرة**

| ت | نوع المادة المستوردة | المنشأ |
|---|---|---|
| ١- | سكر، رز، سكاكين، أواني | برمنكهام (بريطانيا) |
| ٢- | القطن، الأقمشة | مانجستر (بريطانيا) |
| ٣- | الحديد، القصدير | بريطانيا (بريطانيا) |
| ٤- | التركواز، ماء الورد، الفواكه المجففة النحاس، الخشخاش، الأعشاب الطبية | بلاد فارس (إيران حالياً) |
| ٥- | التوابل | سيلان |
| ٦- | اللؤلؤ، الصمغ | البحرين |
| ٧- | القهوة | مخا (اليمن) |
| ٨- | المرجان | إيطاليا |
| ٩- | الحرير الطبيعي، الشاي، الخزف، الموسلين | الصين |
| ١٠- | البنادق، الأواني الزجاجية | السنغال |
| ١١- | التحفيات | بابل ونينوى (العراق) |
| ١٢- | الرقيق | هرمز ومسقط |
| ١٣- | الذهب، الفضة، الشاي، النيلة | سورات |
| ١٤- | الشال | أنقرة (الدولة العثمانية) |
| ١٥- | العاج | أفريقيا |
| ١٦- | التوابل | جزر الهند الشرقية |
| ١٧- | المنسوجات القطنية | الهند |
| ١٨- | الشال | كشمير (الهند) |

**المصدر** : كاسترن نيبور، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة عام (١٧٦٥)، ترجمة هادي العمري، بغداد، ١٩٥٥، ص٤٨-٥٠.

وعندما زار "استون شيفرد" البصرة سنة (١٨٥٧) أكد ما ذكره "بكنغهام" وأضاف ما يتمتع به السكان من أدب في استقبال الغرباء وكرمهم بالتمر واللبن والحليب وما يستطيعون تقديمه(١١)، وذكر أيضاً كيفية تعامل حكام مدينة البصرة

وتسامحهم مع الأقليات الدينية فكان مدعاة لجذب الكثير من تلك الأقليات والاستقرار فيها(١٢)، وهذا له أثر اجتماعي واقتصادي للمدينة لما يضيف لها من تنوع وخبرات وأيد عاملة إضافية ورؤى جديدة لتطوير المدينة وتنميتها.

خلق هذا النسق في العلاقة الأفقية في المكان امتداداً مستمراً نحو تطلعاته المحفزة وتطويره، وما دام القلب ينبض عند صدر نهر العشار كونه محوراً استقطابياً للتجارة وشرياناً ممتداً بين موضعين يرتبط عند طرفيه الرأس بالقلب (العقل بالتوزيع) عبر عملية التبادل التجاري، وتلاقح الأفكار تمخض عن هذا الارتباط بلورة نواة حتم وجودها العامل الاقتصادي في هذا الموضع من المدينة دون غيره، فعندما وسع مدحت باشا سنة (١٨٧٠م) ميناء البصرة وبنى حوضاً داخلياً على شط العرب في المعقل، لاستقبال السفن ذات الغاطس الكبير لعجز ميناء منطقة مناوي باشا عن استقبال السفن الكبيرة تعرض هذا الميناء إلى الإهمال، لأن الولاة الذين خلفوه أهملوا هذا المكان، إذ أصدر الوالي ناصر السعدون أمراً مشدداً لسكان المدينة يمنعهم من السكن خارج حدودها(١٣).

يؤشر هذا استنتاجاً مفاده أن نواة البصرة التي أحاطتها بساتين النخيل كانت معلّمة بحدود مثلث بعضها خلفيات البيوت المتصلة مشكلة سوراً يمكن ملاحظة بقاياه في الجزء الغربي من محلة "نطران" الحالية بشكل أقرب إلى الدائرة وهذا يوفر حماية كافية للمدينة من الغرباء، وإن توسعها يعني المزيد من الإجراءات الأمنية المكلفة.

لقد ذكر الرحالة الأجانب لمّا زاروا المدينة في العقد الأخير من القرن (١٩) أن ميناء البصرة حديث ونامٍ وفيه سوق صغير يضم (٤٠٠) دكاناً يعرض بضائع أجنبية(١٤)، يعني قلة وجود البضائع المحلية والعربية، وبعد أن ظهرت ضاحية "مقام علي" سنة (١٨٧٥) وهي امتداد لميناء مناوي باشا برزت الحاجة إلى ربط البصرة بالعشار بخط ترامواي يكون مركزه في محلة السيف النواة الأولى للمدينة

الحالية وينتهي بسراي الحكومة، ولعدم تحقق فكرة هذا الخط استعيض عنه بالعربات التي تجرها الخيول(١٥)، أدى ذلك إلى نموه وتوسعه منذ سنة (١٨٩٥) ليستوعب (٢١٤٠) بيتاً تركزت قربها كل حركة الميناء المستفيدة من الأيدي العاملة، كما استقرت بها المؤسسات والنشاطات الاقتصادية.

وبعد أن توسعت المدينة أدى ذلك إلى تأسيس شركة عربات تجرها الخيول بين البصرة والميناء(١٦)، ولغرض تنظيم الشؤون التجارية وتصنيف مستوى الحوانيت نتيجة لتوسع الميناء المطرّد دعت الحاجة إلى تأسيس غرفة تجارة البصرة سنة (١٩٠٦)، إذ نشطت الصناعة في المدينة وتنوعت وظهرت منتوجات محلية كالمنسوجات الحريرية والقطنية ومناديل الرأس (اليشماغ) والعباءات والأحزمة الجلدية والأواني النحاسية والفخارية(١٧)، كما نشطت تجارة التصدير التي شملت التمور بمختلف أنواعها، والحبوب والرز، وعرق السوس، والسمسم، والجلود المدبوغة، والخيول التي تصدر سنوياً إلى الهند بحدود (٢٥٠٠- ٣٥٠٠) حصاناً، حيث بلغت قيمة صادرات البصرة سنتي (١٨٦٤ – ١٩١٣) ما يعادل (١٨٠٩٥) باونا استرلينياً وارتفع فيما بعد إلى (١,٩٣٩,٢٥٨) باونا استرلينياً وارتفعت إلى (٣,٢٤٦,٥٦٠) باونا استرلينياً سنة (١٩١٢)(١٨).

تشير هذه القفزات إلى تدني مستوى الإنتاج المحلي من ناحية وعدم قدرته على المنافسة من ناحية أخرى، لذا كان الاعتماد على المنتوج الأجنبي كبيراً، وهذا يؤشره مستوى الإنفاق على السلع المستوردة التي تبرز حقيقة ارتفاع دخول الناس الذي ولّد طلباً على السلع، محفزاً التجارة لتلبية السوق المحلية وسد حاجة أقليمها الواسع مما هيأ لها مكان الصدارة في السلم التراتبي بين المراكز الحضرية المجاورة لها والبعيدة عنها، مما انعكس ذلك إيجاباً على بنيتها الوظيفية وتوسع رقعتها الحضرية.

هذا الوضع شجع على ازدهار الجانب الاقتصادي في البصرة، لأن تفتح المصارف فروعاً لها في المدينة ففي سنة (١٨٩١) فتح بنك (مصرف) فارس الشاهنشاهي فرعاً له في البصرة، وسرعان ما حل محله المصرف العثماني سنة (١٨٩٤) ليقدم خدماته لرجال الأعمال المحليين(١٩).

**ثالثاً- المتغير الإداري** : إن المستوطنات البشرية الواقعة في السهل الفيضي بين دجلة والفرات، قد ازدادت أحجامها وتغيرت وظائفها، ويبدو أن السبب والنتيجة متداخلان بشكل وثيق ومن الصعوبة فرزهما، بيد أن ثمة حافزاً مصدره البيئة الجديدة قد شجع على تطور الصيغة الأكثر تعقيداً للتنظيم الاجتماعي والإداري(٢٠)، اللذان ساهما في نشأة المدينة وتطورها مع موقعها التجاري المميز استدعى ذلك إلى استقطاب أعداد كبيرة من السكان بلغ ثمانين ألف نسمة، وكلمّا تعقدت الحياة احتاجت إلى تنظيم أرقى يواكب هذا التشابك لخلق توزان للنوازع البشرية وضبطها داخل المجتمع الحضري، وقد تبلورت أحداث متسارعة بعد أن دخلت السلطة العثمانية بغداد سنة (١٥٣٤م) وجهت حملة ضخمة للسيطرة على البصرة وتم لها ذلك سنة (١٥٤٦م).

ولما كانت سياسة الدولة العثمانية تعتمد على منظور استراتيجي مفاده جني الفوائد الآتية من المناطق التي تخضع لسيطرتها وإرسالها إلى الباب العالي دون تطوير المناطق التي تحتلها إلا بما يخدم مصالحها، لذا ظهرت بعض المؤسسات الإدارية لخدمة أغراضها بشكل مباشر، فقد أنشأ ديوان لوالي البصرة العثماني سمي بالسراي* الذي أحتوى على أغلب الدوائر الرسمية بما فيها السجون، وهذا رفع من المستوى الإداري لمدينة البصرة.

كما أسست مستشفى الغرباء سنة(١٨٩٠) وتم توسيعه سنة (١٨٩٧)(٢١)، وقد خُصص مكاناً للمدفعية (الطوبخانة) علاوة على دائرة الكمرك.

إن تكامل الجوانب الإدارية في المدينة يدل على أنها وحدة إدارية تتمتع بمقومات المدينة القادرة على أن تكون مركزاً إقليمياً لما يحيط بها من مراكز أخرى

سواء كانت قريبة منها أو بعيدة نسبياً عنها، وقد جذبت منطقة العشار عددا من المؤسسات والنشاطات بجانبها فظهرت فيها إدارة المرسى، ومركز للحجر الصحي، ودائرة الرسومات، ودوائر البحرية(٢٢)، فدفعت تلك النشاطات إلى طرح مقترح لإنشاء بلدية سنة (١٩٠٦) خاصة بها، وقد أُعترض عليه لعدم بلوغ عدد سكان منطقة العشار (٤٠٠٠٠) نسمة كحد أدنى(٢٣) لاستحداثها كي تعطي استقلالية للمنطقة في الإدارة، ومع ذلك استحدثت وبقيت تعمل لمدة وجيزة ما لبثت أن دمجت مع بلدية البصرة الأولى سنة (١٩١٠م) وأضحى العشار ضمن حدود بلدية البصرة، وهذا أول توسع يحدث لها عندما شملت حدودها قصبة العشار(٢٤)، وبهذا بلغت أعداد المحلات السكنية في البصرة لغاية (١٩٠٩) خمس عشرة محلة**.

منذ بداية تكوين مدينة البصرة لم نلحظ وجود تداخل في استخدامات الأرض فيها فكانت الخدمات الإدارية والمواقع العسكرية لا تتداخل مع الوظيفتين السكنية والتجارية.

يحتل جانبا صدر نهر العشار الخدمات الإدارية والمواقع العسكرية وقد احتل الجانب الأيمن من النهر منطقة "مقام علي" بينما منطقة مناوي باشا ظهرت على جانبه الأيسر التي أحاطها السور في عهد حسين باشا أفراسياب(٢٥)، لكونها ميناءً لا يحق لأية سفينة دخول النهر دون ترخيص منها(٢٦)، وفي هذا الجانب كان مسجد له منارة صغيرة ، وعدد من المخازن لطرح الأخشاب والمواد الضرورية لصناعة السفن والزوارق الصغيرة، وتنتظم في الجانب الأيمن منطقة "مقام علي" وفيه دائرة الكمرك ومسجد ومساكن لعمال الحكومة وفيه السراي الحكومي الذي سماه "تافرينه" سنة (١٦٥٢) حوش الباشا(٢٧).

ولمّا زار البصرة الرحالة بارسونز (Parsons) سنة (١٧٧٤م) تحدث عن تجارتها ذاكراً أن المدينة تبدو كأنها سوق عظيم لمنتجات الهند وفارس واسطنبول وحلب ودمشق، وهي مستودع لمنتجات تلك البلدان، وتأتيها القوافل من الشرق

الأدنى وهي مزودة بالعملات الذهبية والفضية والمصوغات النحاسية(٢٨)، ويتم تصريف السلع القادمة من الهند في البصرة وما جاورها، كما تستقبل السلع الواردة من الدول الأوربية وبلاد الشام عبر طريق حلب –البصرة لينقل إلى الهند.

ومع ذلك نجد مدينة البصرة عندما زارها "بارسونز" وصفها بأنها ذات مظهر بائس(٢٩)، ويشير "فنشنسو" أن عمارة مدينة البصرة ليست على جانب كبير من العظمة، وليس فيها ما يجذب النظر وتتناثر دورها بين النخيل(٣٠)، كما يذكر "تايلر" أن البصرة ليست قديمة جداً، وأن الغاية من بنائها أن تكون مستودعاً للتجارة، لذلك لم يتخذها الحكام عبر تاريخها قاعدة مستقرة لهم، ولم يهتموا بهندستها المعمارية، ولا تجد فيها أبنية مهمة كتلك التي تزين عواصم الشرق، ولا وجود لفن البناء فيها، وبيوتها مبنية بالمدر الأبيض(٣١)، وعندما زارها "جون آشر" ( John Ussher) سنة (١٨٦٥) فوجدها بلدة صغيرة نصف خربة بسبب الأمراض وعدم شعور الولاة بالمسؤولية تجاهها(٣٢).

ويعتمد هذا الانطباع على مقارنة حجم التجارة في المدينة مع واقعها المعماري ذي المباني المتواضعة المبنية بالطين المفخور بالشمس، فضلاً عن عشوائية البناء، إذ لا يتناسب مدخلات المدينة مع مخرجاتها الأمر الذي يقود إلى استنتاج مفاده ضعف الموروث الحضاري الذي يمكن الكشف من خلاله عن الجانب المادي لهذه الحقبة.

إن تفاعل الخصائص المادية والروحية مكانياً وزمانياً في الحيز المحدود الذي يعيش فيه الإنسان يبلور خصوصية المدينة ويعبر عن شخصيتها وحركتها بالاتجاهات المكانية الأفضل وهذا يعبر عن قوى الجذب المكاني لشط العرب الذي مدّ ذراعه المتمثلة بنهر العشار بغية استدراج مدينة البصرة النواة الأولى إليه عبر ديناميكية الذراع المائي وحيوية شط العرب الذي ولدّ هيمنة موضعية للالتحام بين النواتين.

## سور مدينة البصرة :

تحتاج المدينة في بدايات نشأتها سابقاً ما يوفر لها الأمن والاستقرار كي تنمو وتزدهر، وعلى وفق العلاقات القائمة آنذاك بين المدن التي يؤطرها عامل القوة والغزو لبعضها بدافع الحاجة المسيرة ضمن أهداف متعددة يعرّض هذه المدينة أو تلك إلى هجمات المدن الأخرى أو الدول أو غزوات القبائل المجاورة، أو جماعات ضاق بهم المكان والغذاء، فدفعهم بالاعتداء على جيرانهم، هذه الظروف وغيرها ولدّت قناعات لدى سكان المدن المستقرة والمطمئنة أن هذه القناعة هي مدعاة لغزوهم من الأخرين لأسباب سياسية أو عسكرية أو موقعية أو اقتصادية، ولغرض منع هذه الغزوات آنذاك قام السكان ببناء السور حول المدينة ليتقوا أو يقللوا من أخطار الآخرين ويساعدهم على رد الأعداء، لذا كانت مدينة البصرة واحدة من تلك المدن التي احتاجت إلى السور بما لا يتلاءم مع نشاطاتها التجارية ولكن اضطراراً لحمايتها، فالسور يمثل للمدن عموماً والبصرة بشكل خاص حاجزاً نفسياً لا يطاق، حتى أن الكثير من الرحالة وصفوه بأنه متداع ولم يكن بحالة جيدة على الدوام إلاّ في حالة التعرض للخطر،في حين تتخذه بعض المدن عاملا قويا لها يساعدها لاحقاً على التوسع بعد أن تستكمل جوانب قوتها، وهذا الأمر يرتبط بالوظيفة الرئيسة للمدينة.

لذا يمكن القول أن سنة إنشاء سور مدينة البصرة بقيت مجهولة، وقد وردت أول إشارة عنه من "جون إيلدر" الذي زار المدينة سنة (١٥٨٣م)، وذكر أن مباني البصرة وقلعتها وأسوارها بنيت من اللّبن(٣٣)، فلم تظهر إشارة سابقة أن السور واكب نشأة المدينة وكتب "بيدروتكسيرا" (Peedro Teixeira) سنة (١٦٠٤م) أن البصرة يحيطها سور يرتفع إلى (٢,٧٠م) ومكان قلعتها الصغيرة المربعة الشكل تقع عند تفرع نهر العشار من شط العرب(٣٤)، وبعد عشرين عاماً زار "فان دي لافال" المدينة ووجد أن ما يحيطها هو استحكامات ترابية، وفي سنة (١٦٥٦م) زارها

الإيطالي "فنشنسو" وذكر طلب حاكم المدينة بتحصين المدينة، وبُوشر البناء وسرعان ما توقف بسبب قلة الجص الذي يجلب من الخليج، فضلاً عن قلة الحطب في المدينة لشوي اللبن(٣٥).

زار "كارستن نيبور" البصرة سنة (١٧٦٥م) وذكر أن أسوارها مبنية من اللبن المجفف بالشمس ويحتوي على خمسة أبواب هي : باب الرباط، وباب الزبير، وباب بغداد، وباب المجموعة، وباب السراجي، وهذا يخالف ما وصفه "تافرنيه" لأبواب السور وهي : الشرقية والغربية وبغداد، لدى زيارته للمدينة سنة (١٦٨٦م) فوجدها كبيرة وتحيطها أسوار ترابية وتوجد أرض فارغة بين السور والمنطقة السكنية(٣٦)، ولم يثر هذه الملاحظة أحد من قبله أو بعده. ويظهر أن التوسع العمراني لم يزل بطيئاً ولم يستطع أن يلتحم بالسور وبقيت المدينة أسيرة بموضعها المحصور بنواتيها حتى نهاية العقد الأول الأول من القرن العشرين.

ويشير "النبهاني" في تحفته أن السور تتخلله أبواب خمسة(٣٧)، وتتخذ المدينة الشكل المستطيل والجهات العامرة فيها تتباعد عن بعضها نصف فرسخ (٣كم) وأن أبوابها وسورها محكمان وقويان وفيها خلق كثير(٣٨).وفيها تتقاطع الجداول الفرعية مع الأنهار الرئيسة أدى ذلك إلى تقسيمها لعدة محلات ولكل محلة نهرها(٣٩)، ويتم الاتصال ببعضها بواسطة القوارب حتى قرنها السواح الأجانب بمدينة البندقية(٤٠)، وتتوزع أغلب أبواب السور بالقرب من مدينة البصرة لكثرة سكانها.

## الخلاصــة :

يمثل موقع البصرة الحالي الواقع على مسافة ٥,٣ كم من شط العرب موقعاً هامشياً على المستوى المحلي بينما يشكل موقعاً عقدياً على المستوى الدولي حيث يربط الشرق الأسيوي والغرب الأوربي،مما جعل لموقعها أهمية تجارية لمدينة البصرة ومستفيدة من عملية الجزرالذي يحدث مرتين في اليوم في نشاطها الاقتصادي بالاعتماد على النقل المائي في نقل البضائع من المدينة وإليها عبر نهر العشار المرتبط بشط العرب.

وقد شجعت العلاقات الواسعة المستمدة من موقع وموضع المدينة على تحفيز الإمكانات الذاتية والموضوعية لها حيث السمة التجارية لها وما يتميز سكانها بمنظور شامل لما يحيطهم من أرجاء المعمورة والذي يتم بمصاهرة الأفكار المتباينة في المكان مكونة مجتمعا متفاعلا ومنسجما مع الآخر دون تحفظ، وقد خلق هذا النسق في العلاقة الأفقية في المكان امتداداً مستمراً نحو تطلعاته المحفزة وتطويره كلها مجتمعة جعلت من البصرة مدينة قادرة على أن تكون مركزاً إقليمياً لما يحيط بها من مراكز أخرى قريبة أو بعيدة.

## الهوامـش

* البصرة (العمرية) يقصد بها البصرة التي أنشأها الخليفة عمر بن الخطاب سنة (١٤هـ) في منطقة الزبير.

* أرسل الحجاج والياً على البصرة والكوفة سنة (٧٥هـ - ٦٩٤م) من الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد استفز الحجاج الناس في خطبته عندما بلغ كلامه (....وأخبركم أنه قلدني بسيفين حين توليته إياي عليكم سيف رحمة،وسيف عذاب ونقمة، فأما سيف الرحمة سقط مني في الطريق، وأما سيف النقمة فهو هذا، فحصبه الناس مما أدى إلى أن تنال سيوف هذه رقاب الناس)، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص٢٣.

(١) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج٢، ص٢٣.

(٢) الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة،الجزء الثاني،ط١،١٩٨٢،ص٣٤.

(٣) عبد القادر باشا أعيان العباسي، البصرة أدوارها التاريخية، مطبعة دار البصرة، بغداد،١٩٦١، ص٥٤-٥٥.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٤، شركة التجارة والطباعة، بغداد، ١٩٤٩، ص٤٦.

(٥) حسين خلف الشيخ خزعل،تاريخ الكويت السياسي،ج١،بيروت،١٩٦٢، ص١٠٧.

(٦) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، القاهرة، ١٩٦٨، ص٧٧-٧٨.

* لم يشر المصدر إلى دخول وخروج هذه الزوارق والسفن خلال يوم أو شهر أو سنة.

(٧) جريدة البصرة،العدد ١٤في٢٣ ربيع الآخر،١٣١٠هـ - ١٨٩٢،إفتتاحية الجريدة.

(٨) رجب بركات، بلدية البصرة، ١٨٦٩ – ١٩٨١م، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٤، ص٥٩.

(9) Aston shepherd, From Bombay to Bushir and Bussora : Including Account of the present state of Persia and notes on the Persian war, London, 1857, p.197.

(١٠) بكنغهام، رحلتي إلى العراق سنة (١٨١٦)، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١، بغداد، ١٩٦٧، ص١٣٦.

(11) Aston shepherd, op. cit., p. 197.

(١٢) كارستون نيبور، مصدر سابق، ص١٠.

(١٣) الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، ج١، مطبعة جامعة البصرة، البصرة، العراق، ١٩٨٩، ص٤١.

(14) Coper H. S., Trough Turkish Arbia : Journey From Mediterranean to Bombay by Euphrates and Tigris and the Persia Gulf, London, 1894, p. 414.

(١٥) جريدة الزوراء، العدد ٥٧٢، ٢٢ رمضان، ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م.

(١٦) خليفة بن محمد النبهاني، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية، ط٢، ج٩، ١٩٠٥، ص٦٤.

(١٧) الكسندر أداموف، مصدر سابق، ط١، ص١٨٢.

(١٨) الكسندر أداموف، مصدر سابق، ص١٦٧-١٧١.

(١٩) المصدر نفسه، ص٩٥-٩٦.

(20) James H. Johnson., urban Geography : An Introductory Analysis 2nd Edition, oxford, 1972, p. 3-4.

* يقع على الضفة الجنوبية من نهر العشار.

(٢١) جريدة البصرة، العدد ٣، صفر، ١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م.

(٢٢) جريدة البصرة، العدد ٤، ١٨ جمادي الأول، ١٣٢٨هـ - ١٩١١م.

(٢٣) جريدة البصرة، المصدر نفسه.

(٢٤) رجب بركات، بلدية البصرة، مصدر سابق، ص١١٨.

** كوت الحجاج، واخوت رزنه، والصبخة الكبيرة، والصبخة الصغيرة، وعز الدين، والفرسي، والبريهة، ومقام علي والكزارة، ومناوي باشا، وجسر الملح، وجسر العبيد، والسيف، والقبلة، والسيمر.

(٢٥) بكنغهام، رحلتي إلى العراق سنة (١٨١٦)، ترجمة سليم طه التكريتي، ج١، بغداد، ١٩٦٧، ص١٣٦.

(٢٦) تافرنيه، العراق في القرن ١٧، ترجمة بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، بغداد، ١٩٤٤، ص٩٤-٩٦.

(٢٧) تافرينه، المصدر نفسه، ص١٩٦.

(28) Abraham persons., Travels in Asia and Africa, Including a Journey from Scanderon to Alppo and over the desert to Baghdad and Bussora, London, 1808. p 161.

(29) Abraham persons., Ibid. p. 173.

(٣٠) رحلة فنشنسو إلى العراق، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، مج٥، العدد ٣، ١٩٧٦، ص٨٣.

(٣١) رحلة تايلر إلى العراق (١٧٨٩ – ١٧٩٠) Travels from England to India، ترجمة بطرس حداد، مجلة المورد، مج ١١، العدد الأول، ١٩٨٢، ص٢٥.

(32) John Ussher., A Journey From London to Persepolis, vol.1, London, 1865, p. 494.
(33) C. R. Beazly, Voyages and Travels mainly during the 16th and 18th centuries, Vol.6, London, 1903, p.6-7.
(34) Peedro Teixeira, Travels of Peedro Teixeira, Translated by W. H. Sinclair, (ed) D. Ferguson Hakel. Lavdon, 1902, p.15.

(٣٥) رحلة فنشسو إلى العراق في القرن (١٧م)، مصدر سابق، ص٨٤.
(٣٦) كارستن نيبور، مصدر سابق، ص٦٥.
(٣٧) خليفة بن محمد النبهاني، مصدر سابق، ص١٠.
(٣٨) محمد رؤوف السيد طه الشيخلي، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها سنة ١٤هـ وما بعدها، ط١، مطبعة البصرة، ١٩٧٢، ص٦٠-٦١.
(٣٩) خليفة بن محمد النبهاني، مصدر سابق، ص١٥.
(٤٠) الكسندر أداموف، مصدر سابق، ج١، ص٣٩.

## المصـــادر

١- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج.١
٢- أداموف، الكسندر، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة هاشم صالح التكريتي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، البصرة، الجزء ١ و٢، ط١، ١٩٨٢.
٣- باشا أعيان العباسي، عبد القادر، البصرة في أدوارها التاريخية، مطبعة دار البصرة، بغداد، ١٩٦١.
٤- بركات، رجب، بلدية البصرة ١٨٦٩ – ١٩٨١، منشورات دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، البصرة، ١٩٨٤.
٥- بكنغهام،رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦، ترجمة سليم طه التكريتي،ج١، بغداد، ١٩٦٧.
٦- تافرنيه،العراق في القرن١٧،ترجمة بشيرفرنسيس وكوركيس عواد،بغداد، ١٩٤٤.
٧- رحلة فنشنسو إلى العراق،مجلة المورد،ترجمة بطرس حداد،مج٥،العدد٣، ١٩٧٦.

٨- رحلة تايلر إلى العراق ١٧٨٩-١٧٩٠، مجلة المورد، ترجمة بطرس حداد، مج١١، العدد الأول، ١٩٨٢.

٩- الشيخ خزعل، حسين خلف، تاريخ الكويت السياسي، ج١، بيروت، ١٩٦٢.

١٠- الشيخلي، محمد رؤوف السيد طه، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها سنة ١٤هـ وما بعدها، ط١، مطبعة البصرة، ١٩٧٢.

١١- نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث، القاهرة، ١٩٦٨.

١٢- نيبور، كاسترن، مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥م، ترجمة هادي العمري، بغداد، ١٩٥٥.

١٣- جريدة البصرة، الافتتاحية، العدد٣، صفر ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م.

١٤- .....، الافتتاحية، العدد٤، جمادي الأول ١٧٢٨هـ = ١٩١١م.

١٥- .....، العدد ١٤ في ٢٣ ربيع الآخر ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م.

١٦- جريدة الزوراء، العدد ٥٧٢، ٢٢ رمضان ١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م.

17- Beazly C. R., Voyages and Travels mainly during the 16th and 18th centuries, Vol.6, London, 1903.

18- Johnson. H. James, Urban Geography : An Introductory Analysis 2nd Edition, oxford, 1972.

19- persons Abraham., Travels in Asia and Africa, Including a Journey from Scanderon to Alppo and over the desert to Baghdad and Bussora, London, 1808.

20- shepherd A., From Bombay to Bushir and Bussora : Including on Account of the present state of Persia and notes on the Persian war, London, 1857.

21- S. H. Coper., Trough Turkish Arbia : Journey From Mediterranean to Bombay by Euphrates and Tigris and the Persia Gulf, London, 1894.

22- Teixeira Peedro, Travels of Peedro Teixeira, Translated by W. H. Sinclair, (ed) D. Ferguson Hakel. Lavdon, 1902.

23- Ussher John., A Journey From London to Persepolis, Vol.1, London, 1865.